

إشكالية الأخلاق المثالية في الفلسفة الأمريكية-جوزابا رويس أنموذجا-

الباحث. كمال ذويبي -جامعة وهران-

الملخص

لقد تعرض الدين والعلم والأخلاق إلى معاول النقد باستمرار، والنقد الذي يأتي للمنظومة الخلقية لا يأتيها من العصاة والمارقين الذين لا يقيمون وزنا للمثل الأخلاقية فحسب، بل يأتي هذا النقد من قبل أشخاص يطرحون أنفسهم كحريصين محلصين للإنساني، ففي حين تعتبر قوانين الملكية الشخصية من المسلمات التي يجب صيانتها واحترامها ببعديها القانوني والخلقي، نجد أن هناك من يعتبرها تخلو من المسحة الأخلاقية، فقد يكون الوارثون للملكيات في الأرض أو المال أو المؤسسات قد انتقلت لهم تلك الملكيات من أناس غاصبين أو مرتشين، أي من خلال طرق لا أخلاقية، فاعتبروا أن قانون حماية الملكية (لا أخلاقي)، وهو ما ساد في القرون التي ازدهر فيها التفكير الاشتراكي، منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى اليوم، و التقى الفكر الليبرالي مع الفكر الماركسي والوجودي على أنه لا يمكن اعتبار تفديس الروابط الأسرية واعتبارها من الفضائل بل هي روابط لا قيمة لها، كما أن الهجوم الكبير الذي وجهته النشاطات الفكرية على القيم الأخلاقية القديمة وضع تلك القيم ك مطلب أساسي عند تلك النشاطات لتجاوزها واعتبارها من التقاليد القديمة البغيضة، وهي بنظر أولئك المفكرين تعتبر أخلاقا زائفة. وإن كانت مهمة الفلاسفة الحديثين هي الوقوف والتأمل أمام هذا النشاط الذي أفرزه نشاط المهاجمين للقواعد الخلقية القديمة، هذا النشاط الذي جعل العالم مرتبكا وحائرا أمام خيارين، إما التمسك بالأخلاق القديمة على ما هي، أو مسaire التوجه الجديد بما فيه من فوضى تجعل العالم وكأنه بلا أخلاق. لذا وقع على الفلاسفة دور كبير في استنبات القيم الأخلاقية الفعالة التي تواكب العصر، ولا يعني هنا التوجه للقطيعة الكاملة مع الماضي، بل أخذ بدور فضيلة الماضي واستزاعها في بيئة جديدة تحتاجها وهذا ما فعله رويس بالضبط.

مقدمة:

يعد "جوزابا رويس" Josiah Royce من بين كبار المثالية في القرن التاسع عشر، في كونه قدم محاولة منه في العديد من كتبه خاصة الجانب الديني للفلسفة" للتوفيق بين الفلسفة والدين ودفاعا عن الفلسفة، وفي الوقت نفسه مؤكدا على عقلانية الدين، إلا أن التوفيق بين الدين والفلسفة تعتبر قضية قديمة، فقد مارس فلاسفة الإسلام عملية التوفيق بين الفلسفة اليونانية والدين الإسلامي، كما حاول فلاسفة المسيحية تعقيل الإيمان، إلا أن أهمية الفلسفة التوفيقية أو كما يطلق عليها "التلفيقية" لدى "رويس" تكمن في أنها جاءت في وقت اتجهت فيه الفلسفات المعاصرة إلى رفض الميتافيزيقا، ومنها فقدت الثقة في الدين التقليدي، خاصة بعد معانات الإنسان من الفساد والحروب، وانتشر الشك في كل شيء مقدس أو ديني، وسادت روح الفردية والانانية، وطغت الروح المادية كما كثرت النزعات الإلحادية وانقسم الفلاسفة إلى قسمين، منهم من جعل الفلسفة والمذاهب الجامدة والميتافيزيقا مسؤولة عن هذه الفوضى التي بلغ إليه العالم، ومنهم من اتهم الأفكار الدينية التقليدية لجودها وتحلفها، ومن هنا يحاول "رويس" أن يقدم لنا نموذجا معاصرا لكيفية معالجة الصراع، وكما يرى أحمد الأنصاري أن هذا التوفيق الرويسي من الممكن أن يساهم في إلقاء الضوء على الصراع القائم بين المفكرين العرب المحدثين، في كيفية الإصلاح والتطوير لمجتمعاتهم، فهناك من يرى أن في العلم والعقلانية وتجنب الدين طريقا للإصلاح. وهناك من يرى أنه لا تقدم إلا بالعودة إلى الأصول وإحياء الماضي والسير على نهج الأقدمين، وهناك اتجاه ثالث يطالب بالتوفيق بين الاتجاهين السابقين، ولعل هذه الفلسفة الرويسية قريبة جدا من الاتجاه الثالث، وكأن هناك أمل كبير في الإصلاح والتطور.

وقد طرح سؤال القيم في الفلسفة بتأثير من علم الأخلاق "Ethique" الذي هو علم المثلى الأعلى، العلم الذي يبحث في أفكار الإنسان من جهة صوابه وخطأها وعلاقتها بالخير والشر ونتاجاتها للعادة والطبع وتداخلها مع الدين، وانطلق من موضوع علم الأخلاق الذي يبحث في عادات الناس وأفعالهم وفي المبادئ التي اعتادوا العمل عليها وفي الأسباب التي تجعل هذه المبادئ حقا أو باطلا، ويمكننا أن نتحدث على طبيعة كل من الخير "bon" والشر "mal" والحق هو ما يطلب مع شرائع العدل والتقويم الخير، فما هو الخير؟ و البحث عن مفهوم الخير يقودنا على نقطة البداية التي بها يكون الشيء هو، هو والكيفية التي تؤدي به إلى أن يكون كذلك، البحث عن الشيء بماهيته، ومن ثم يوصلنا إلى البحث عن أصل الأخلاق وتساءل عن مصدرها ومكوناتها لان الأخلاق ليست لها وظيفة سوى محاولة فهم معنى الخير، أي أنها لا تولد الأفعال الناجمة عن هذا المفهوم، ومن ذلك نعرض لتعريفات عن الخير كسلوك لعلها تكشف عن جذوره الأساسية، فالخير عند أفلاطون

"Platon" هو المطلق "absolu" الذي تندرج تحته جميع الموجودات، وهو الواحد وماعده المجرّد والسائل ولهذا فإن الخير يسير الإنسانية كنوع وليس كجاة أفراد الذين يتظهرون في شكل الدولة.¹ أما سيغوند فرويد Sigmund Freud في كتابه الحضارة وبؤسها فقد كان أكثر وضوحا من أفلاطون، إذ اتجه مباشرة إلى جذور الخير والشر ووجد أنها كامنة في الإحساس بالإثم والإحساس بالإثم كامن في الإحساس بفقدان الحب، الذي هو حقيقة الخوف من السلطة التي تركزت بفضل الأنا الأعلى، والأنا الأعلى هو وريث العقد « edibe » أما شيليك « Schlick » في كتابه مشكلات الأخلاق والذي أحصى فيه تعريفات متباينة لمفهوم الخير عند كل من سقراط « sacret » وأفلاطون وأرسطو « Aristote » ويعرف الخير بأنه كل ما هو محكوم برأي المجتمع، وهو الذي ينتج الأوامر الخلقية وبالتالي فإن المعايير الخلقية وأساليب السلوك تتغير بتغير البنية الإجتماعية، أما " مور " « Moore » فهو يرى أن موضوع الأخلاق هو البحث عن ماهية الخير بالتدقيق عن سلوك الخير، ولهذا يرى أن السؤال عن ماهو الخير هو سؤال عن السلوك الأول في الأخلاق وبالتالي يمكن أن نقول عنه أنه كلما كان صالحا لغاية أو غرض أو كل ما هو مرغوب فيه للبلوغ إلى تلك الغاية يسمى خيرا.²

كما أن النظام الأخلاقي وعلاقته بالواقع يشكل الدعامة الأساسية للفلسفة الدينية، فقد لا يعرف الإنسان نشأته ومصيره أو صلته بالطبيعة أو الله ولكنه يدرك أنه يجيا في وسط مجموعة من الأفراد عليه أن يتعامل معهم فيسعى دائما لتشكيل مثاله الأخلاقي الذي يلتزم به حتى تستقيم حياته والحياة الإنسانية عامة، لذلك تناول دراسة الأخلاق البحث عن المثال الخلقى أولا ثم مناقشة العلاقة بينه وبين الواقع ثانيا وتميز المشكلة الأساسية في المشكلة الخلقية في الطبيعة بين الصواب والخطأ أو مدى صدق هذا التمييز وهل من الممكن تشكيل المثال الأخلاقي من داخل الذات وبعبدا عن أي نظرية في العالم الطبيعي؟ أم من الممكن تشكيل المثال أولا ثم يطلب من العالم الخضوع له؟

لا شك بأن فلسفة رويس تستمد مصادرها من مجمل التراث الفلسفي الإنساني لكنها ستأخذ من الفلسفة المدرسية التي سادت في القرون الوسطى الكثير من مرجعياتها الدينية والأخلاقية، صحيح أنّ الفلسفة المدرسية في العصر الوسيط كانت فلسفة مسيحية، إلاّ أنه من غير الصحيح انها اقتصرت على مسائل الدين، فقد نظرت في المسائل الطبيعية والعقلية كأحسن ما ينظر فيها كما يصرح رائد البحث الفلسفي المصري في بداية القرن العشرين يوسف كرم.³

ويبين رويس هنا أن هذه الإشكالات قد أدت إلى صراع المثل الأخلاقية ونمو الشك الأخلاقي⁴. عبر مراحل عدة والتي تمثل كيفية الانطلاق من مرحلة الشك إلى تكوين مثال أخلاقي صحيح، وهذه المراحل تكون متسلسلة منطقياً ومنهجياً كالتالي:

أولاً- صراع المثل العليا

يعتبر "جوزايا رويس"^{*}، أن الافتراض بوجود علمين للخير والشر باعتبارها ثنائية التناقض أو التقابل في الكثير من الأشياء تجعل هناك حتمية لوجود امتداد لها في داخل الكائن وذاته المنقسمة إلى عوالم متعدّدة في الباطن الكامن بمثابة صور شتى من الوعي واللاوعي، والروح والجسد، حيث يتم التعامل مع المحيط الخارجي بها فتخضع بها أحكامنا للقيم والأعراف.. ولكن المؤسف أن الذي يحدث الآن وبرغم أن هناك أفراداً يؤمنون بالخير كفضيلة إلا أنهم يقتحمون عالم الشر لترميز مصالحهم في المجتمع، وهذا التأرجح في الذات بين علمين متناقضين هو الذي يشكل خطراً على الذات البشرية فتداخلت العوالم واختلطت وأصبح الكائن يشعر بتخبط وضياح وإحباط ينتهي بمجاراته للآخر خوفاً منه وهنا يقول: جوزايا رويس: "إن عالم الخير ليس عالم البراءة الكاملة ولا هو تجاهلاً للشر وإنما احتواؤه والتغلب عليه"⁵. فما هذا الذي يحصل على أرض الواقع وكل هذا الدم يراق تحت مسميات مختلفة، إن ثنائية الخير والشر ليست عبارة عن النقيض ونقيضه، وإنما ما تختزن من أسباب ودوافع لأن يكون الخير فضيلة والشر رذيلة، فإن كانت الأسباب ذات دوافع خيرة عمّت الفضيلة وإن كانت الأسباب ذات دوافع شريرة عمّت الرذيلة. لذلك دافع الخير سببه الحد من الرذيلة ودافع الشر سببه قتل الفضيلة، ويشغل مفهوم السببية باليات الدوافع الذاتية لتحقيق مصالح شخصية تعتمد قيم الخير أو الشر لتحقيق هدفها المنشود. إذن فمفهوما الخير والشر تحدده القيم الاجتماعية والدينية الراسخة في وجدان المجتمع، ويتوقف حجمها ونسبها وإدراكها على كل ذات على حدي وما تحمله من رواسب كامنة، الرواسب الخيرة أو الرواسب الشريرة، ومستوى ثقافتها. كما أن الكائنات الاجتماعية ضمن المجتمع الواحد تختلف بمستويات الإدراك لماهية الخير والشر ومن ثم لمفهوم الفضيلة والرذيلة، فلحجم الرواسب الشريرة الكامنة في الذات تأثير كبير على السلوك اليومي للفرد كأن يكون سلوكاً مؤدياً للمجتمع من دون أن تدركه الذات على نحو حقيقي ولا تعدّه من الرذائل، لكن الذوات السوية في المجتمع تعدّه سلوكاً منافياً لقيم الخير.

إن نظرة الفلاسفة لمعيار التمييز بين الخير والشر تختلف باختلاف اتجاه كل واحد منهم، فالفيلسوف الواقعي يرى أن معيار التمييز بين الخير والشر هو "العالم"، وعلى الإنسان أن يدرس "الواقع" ليستنبط منه مثاله الأخلاقي، وبالتالي فلا بد من الخروج بنتائج في الواقع لهذا المثال. أما الفيلسوف المثالي فيقرر أن الإنسان يبني "مثاله" من الداخل، ويتعلم من الواقع العلاقات التي يجب أن يطبق عليها "مثاله" فغاية الفعل الأخلاقي مستقلة عن أي نتائج من الممكن أن يحققها في الواقع، ويؤكد لنا رويس انه ليس بالضرورة أن يأتي "المثال" متوافقاً مع المجتمع، وقد يعترض الواقعي على أنه إذا كان للفرد أن يختار "مثاله" فإن المثل تأتي مختلفة كما تأتي الأحلام، ومن

هنا تظهر لنا عدة تساؤلات عن الأساس الذي بناءا يتم عليه اختيار المثال، وعن ماهو المثال الأفضل، هل الذي يمكن تحقيقه، أم الذي يكون صائبا بذاته؟ وهل نستمد من الوعي والضمير أم من العالم الخارجي؟⁶.

ويرى رويس أن المذاهب الأخلاقية قد عانت على مر التاريخ من تضارب وتعارض المثل الأخلاقية ذاتها، ومن تناقض هذه المثل في الواقع، فيصر كل مثالي على أن مثاله الأخلاقي هو المثال الصحيح، فقال أفلاطون بالعدالة وانتصار العقل على الرغبات وأكد الرواقيون على العقل باعتباره أساسا للقيم الخلقية فالكمل متساوون أمام العقل الكلي، وقد جاءت الأخلاق المسيحية امتدادا "للرواقية" stoïcisme ، فجعل "المسيح" الانسجام مع الحب الإلهي جزءا الخيرية، واستبدل المحبة بالعقل، فإذا كانت الرواقية قد اعتبرت الله هو العقل، فلقد أعطى المسيح لفكرة الله الحياة والمحبة والحيوية، ومن خلالها ظهرت فكرة الواجب الأخلاقي، وأصبح الواجب معيارا للتمييز الأخلاقي بدلا من العقل⁷. كما جاءت الأخلاق المسيحية معتمدة على الحدس الفطري ونظرت لله كأب فمن الصعب البرهنة على فكرة الأبوة نفسها، وبذلك يعتبر رويس أن مشكلة الأخلاق الرئيسية تكمن في عدم القدرة على البرهنة عن سبب اختيار مثال خلقي معين دون آخر أو صعوبة التمييز بين مثال وآخر "فإن أمكن الحكم على الأفعال الفردية من خلال مثال معين فمن يستطيع الحكم على المثال نفسه؟" فقد يتخذ فردا ما أفلاطون أو الرواقية أو المسيحية مرشدا أخلاقيا له، ولكن غالبا ما تظهر مواقف تتعارض مع هذه المثل الأخلاقية وقد تدفع للشك وتطالب بالبرهان.

وتواجه الفلسفات الأخلاقية التي تقيم الأخلاق على "الضمير" الوجدان، اعتراضات جمة، فإن كان الضمير يصلح في مجال الأخلاق العملية، فإنه لا يصلح في مجال الأخلاق النظرية، وبالتالي لا يستطيع التمييز بين الصحيح والخطأ، وليس مثلا ولا يعد أساسا واضحا لأي مثال خلقي، ولا يستطيع التمييز بين مثال وآخر، ومن هنا فهو يقوم على المشاعر، فلا يحل المشكلات بقدر ما يخلقها.

وإن قال السفسطائيون بأن ضمائر الناس والأجناس والأمم تنطوي على الأحكام الخلقية فهي تحتاج لشيء آخر تستند عليه لاختيار هذه الضمائر وإن تأسيس الأخلاق على الوجدان يؤدي إلى الكثير من التساؤلات فما الذي يجعل الإنسان يطيع ضميره؟، ومن الذي يجعل حكما من أحكام الضمير صائبا؟، وكمن المذاهب والمجازر ارتكبت باسم الضمير؟، إن إقامة الأخلاق على وجود الله أو وجود الضمير في نظر "رويس" يواجه دائما بشك حول طبيعة وجودهما، ويقرر "رويس" أن الصعوبة التي تتسبب في تضارب المثل الأخلاقية، تتمثل في حاجتها إلى قاضي أعلى ليحكم بينها، فإذا ما بحث هذا القاضي في العالم الواقعي فإن مثاليتهم تتعرض للخطر، وإذا ما فتش الناس عنها في ضمائرهم فإن الصراع يتصاعد لأن أي منهم لن يكون هو القاضي الوحيد⁸. كما أن الفلسفات الخلقية، التي حاولت التخلص من إشكالية المثل الخلقية، فقالت بالواجبات الاجتماعية والفردية، نجدها واحمت نفس الصعوبات المتعلقة بالمثل الأخلاقية، وهنا يقدم لنا رويس مثلا في مسألة التمييز بين "الغيرية" و"الأناية" فما معيار صحة هذا التمييز؟، وماهر الأساس الذي قامت عليه القاعدة الخلقية والتي تقول "حب لجارك ما تحب لنفسك"؟

وهنا يقرر رويس أنه إذا كان جارك له وجود حقيقي مثل وجودك، فانه يشعر بالحياة مثلا تشعر ويعاني المشكلات وصراع الرغبات والقرارات المصيرية، يكره الآلام ويحب الأفراح وربما عندما تحب جارك وتشفق عليه تزيد مشاعرك حجاب الوهم للحظة قصيرة فتدرك انه ذات حقيقة مثل ذاتك الحاضرة.⁹ ويوجه رويس هنا نقدا لادعا لسبنسر فلقد قال "سبنسر" بضرورة التوازن بين الغيرية والأنانية ولكن وصف الغيرية بالأنانية لا ينهي الصراع ؟ إن ما يهم بالنسبة للعلاقة بين الأنانية والغيرية، أن هناك نوعين من السلوك أحدهما يدعو لاحترام الغير، والعمل لصالحه، والآخر يطلب النظر إليه كمجرد أداة للسعادة الشخصية، وهنا يصرح رويس أن مشكلة الأخلاقيين تكمن في كيفية التمييز بين هذين النوعين، وهل نعتبر الأنانية خلقا، أم هل الغيرية تمثل مثلا أفضل ؟

كما يوجه رويس أيضا في دراسته هذه نقدا لشوبنهاور "Arthur Schopenhauer" 1860_1788 "الذي قال بأن "الإيثار مبدأ واضح بذاته، ولا يمكن رد الشفقة أو العطف إلى الأنانية، فالعاطفة هي المبدأ الوحيد الغير أناني في الإنسان، ولذلك تعد الشفقة هي أساس السلوك الصائب في الإنسان والنافع الأخلاقي الوحيد"، لكن في مقابل ذلك وإن قال "شوبنهاور" بالعاطفة فكيف يتم شرحها وتفسيرها لفرد الغير عطوف، "كما أن الأنانية تنمو في الوقت الذي يحتاج فيه الغير للمساعدة"¹⁰. أن المثالي الأخلاقي يرغب أن يحكم على العالم من خلال مثال أخلاقي، وبذلك يكون سنده الوحيد لهذا المثال الذي يحكم من خلاله في انه موجود، ومن هنا كان لابد للمثال من أساس فكري مثالي، ومن هنا يوجه المثالي نفس الانتقادات التي وجهت للواقعي¹¹، ومن هنا رأى رويس بأن الفيلسوف المثالي إن كان صادقا في اعتراضه على أنصار هوبز "Thomas Hobbes" " أي الرغبة والمنفعة، وبأن فروضهم لا قيمة لها دون المثال فانه يواجه بالتحدي بأن يبين أن مثاله الخلفي ليس مجرد نزوة وليس مؤسساً على نظرية أو مذهب في الطبيعة لذلك سوف يقع في الشك لا محال.

ثانيا- الشك والتشاؤم الأخلاقي

بدأ رويس مع شوبنهاور بالتشاؤم من خلال "اليأس من شك لا يعالج"، حيث لا يوجد أي إلزام عقلي لقبول هكذا مثال أخلاقي دون مثال آخر، إلا أن هذا الشك في نظره يحتوي في قلبه على الحقيقة والتي ندرنا أنفسنا لاكتشافها، لمعرفة أن كل مثل خاص يجب أن يتطابق مع مثال مطلق، يصبغه رويس بالطريقة الكانطية "Kantianism" "حيث يقول "بمقدار ما تجد هذا من ضمن قدراتك، تصرف كما لو كنت في نفس الوقت جارك وأنت فتعامل مع هاتين الحياتين كحياة واحدة"¹². أي أن تجعل حياتك وحياة جارك متطابقة، إذن نجد أن مثالية "رويس" ليست مثالية فردية، بل على الفرد الاشتراك في تحقيق إرادة كلية مطلقة.

وفي كتابه "الجانب الديني للفلسفة" يحاول رويس معالجة إشكالية الشك والتشاؤم الخلفي والذي ظهر لنا من خلال صراع المثل العليا، حيث أن تحول المثالي إلى الشك يبدو على حسب اعتقاد رويس المخرج الوحيد لاختيار مثاله الأخلاقي، فلو كان قد اكتفى بمعيار اقل أو لم يصر على اختيار مثله الأعلى بمنهج مثالية لكان قد ظل آمنا، أو على الأقل في الوضع الآمن الذي يحتله مؤقتا. ولكنه دائما ما يتجاوز هذا الوضع، فقد تقدم لنا بعض الوقائع الخارجية أو بعض الحالات العقلية نفسها، فتساءل نحن ربما يوجد المثل الأعلى الذي ابحت عنه هنا

وبالتالي ارتاع وعمل به، لكن سرعان ما تنبت جذور الشك داخله، وتتمه بعدم الإخلاص، فيخطبه شكه ما هذا المثال الذي وجدته؟، أم أنك فقط تصادفت في وجوده؟، فيجد صاحبنا المثالي نفسه ملزما بالقول "لم أتصادف بوجوده، بل بسبب اختياري الحر له لإرشادي وتوجيهي انه مثلي الأعلى"¹³، وعندها يظهر الاتهام المتكرر له، من حيث أن النزوة أو الرغبة هي الأساس الوحيد لهذا المثل الأعلى، لذا يبدو أن المذهب الشكي، أو الشك المطلق في الأخلاق يفرض نفسه علينا.

والواقع كما يوضح رويس أن في مثل هذا النوع من الشك يمكن أن نجد السبب الحقيقي لقوة المذهب التشاؤمي الحديث، فلا نجد الأساس الحقيقي لليأس في تحقيق المثل العليا التي نكون قد إختارناها، وإنما في ترددنا المستمر وحيرتنا عند اختيار هذه المثل العليا نفسها، وهنا يقول رويس "أختر لنفسك مثلاً أعلى، فيصبح لديك دور تشارك به في بناء العالم. فان كان المثل الأعلى الذي وضعته لنفسك مثل المثل العليا التي يصعب تحقيقها فانك لن تصاب باليأس أو التشاؤم، وإنما تشعر على الأقل بنوع من المتعة، من استسلامك الإرادي الحر لخدمة هدف من الأهداف النبيلة"¹⁴ أما إذا كنت تحاول البحث عن مثل أعلى، يستحق التزامك به وأصابتك الحيرة والتردد، فانك واقع لا محالة في مصيدة التشاؤم، لذا يلاحظ رويس أن المتشائمين، لا يهتمون كثيراً بشروط الحياة، وكونها وقائع حقيقية، بقدر اقتناعهم بأن الحياة لا هدف منها

ويعتقد رويس أن الفيلسوف المثالي لا يتمسك بمثله الأعلى بسبب واقعيته، وإنما بسبب اختياره الحر لهذا المثال، لذلك غالباً ما نجد أن "الهوى" أو الرغبة، هي الأساس الوحيد لهذا الاختيار، ومن هنا رأى رويس أن الأساس الوحيد للأخلاق هو الشك الكامل، حيث دفع هذا الشك الأخلاقي بعض الفلاسفة إلى التشاؤم أو القول بعدم جدوى المثل العليا. فأكد "شونهور" على عدم جدوى الحياة، ووجدت "البوذية" أن اختيار الفرد لمثل أعلى يولد صراعاً بين المثل العليا، فالأخلاقية ليست احتجاجاً على الشر في العالم وإنما دليل على لعنة المثل، ويشير رويس إلى أن الشعر الحديث اتجه للقول بفرغ الحياة الخلقية، وبذلك شكلت الانفعالات العنيفة الحالات النموذجية للوعي الأخلاقي، كما أن رويس يرى "أن الشعر الرومانسي يؤدي في النهاية إلى التشاؤم"¹⁵.

وبعد عرض المشكلة الأخلاقية وإشكالات المثل الخلقية وما ينتج عنها من شك وتشاؤم، يبدأ رويس في تحليل الشك الخلقى، فيرى أن الشك يعبر عن التشاؤم والقلق الذي يشعر به الفرد عندما يتناول غايتين أو إرادتين متعارضتين. ولا يظهر الشك بين اختيار إحدهما وتجاهل الآخر بل بسبب الرغبة في تحقيقها معاً، فهو ليس شك بسبب جهل المعرفة، لذا يكون الشك الأخلاقي في حد ذاته نتاج فعل أو نشاط يسعى الوعي من خلاله إلى تحقيق الغايات المتعارضة داخله، ويعتبرها رويس بأنها ملاحظة في غاية الأهمية تبين أنه بالرغم من كل الشكوك الأخلاقية فإن هناك غاية تجعل الشك ممكناً، لذا يتضح أن مذهب الشك الأخلاقي لا يخلو تماماً من هدف أخلاقي، وهو الجهد لتحقيق انسجام الكامل يسبق الأهداف المتعارضة¹⁶. أما التشاؤم الأخلاقي فهو عبارة عن يأس من عدم القدرة على تكوين مثل أعلى للحياة الخلقية، فلا يكون التشاؤم رفض للمثل الأخلاقية بقدر ما هو جهد لتحقيقها جميعاً، فالتشاؤم له مثل أعلى يسعى لتحقيقه وبدون هذه المثل لا وجود للمعاينة

والياس، وبذلك ينتهي رويس إلى أن الشك الأخلاقي أو التشاؤم يحملان في أعماقها مثلا أخلاقيا، والتشاؤم كان نتيجة طبيعية للشك، والشك بدوره إدراك لغايات الإنسان المتصارعة.

لكن من هذا التحليل نساءل: **أنتك هي المثالية؟** أم أنه عبارة عن شك فلسفي في أساس الأخلاق؟، وهنا يريد رويس بان القضية الأخلاقية هي القضية التي تصف فعلا ما بالإشارة إلى غاية ما، وكل قضية من هذا القبيل "تنتمي إلى نظام". وتعتبر القضية الأساسية لكل نظام أو نسق أخلاقي غاية يعتبرها الشخص الذي يؤمن بها أو ذلك النظام غاية نهائية، ومن اختياره الخاص وحده¹⁷. ومنها نجد أن رويس قد استخدم المنطق بمفهوم النظام أو النسق في تبرير الفعل الأخلاقي. لذلك فإن الأخلاق في نظر "رويس" لا تحتوي أفعال أخلاقية فقط، بل وقضايا غير أخلاقية وانساق لا تنتمي للأخلاقية، حيث أن الشك نتيجة حتمية للموقف المثالي، والعالم الأخلاقي يبدو عالما تسوده الفوضى، وكل غاية يتم اختيارها لا يمكن قياسها نظريا لأن الصراع بين الغايات هو صراع عملي. ومع ذلك فإن الإنسان يعرف أن هناك انتصارا أبديا لكل كفاح، وفكرا أبديا منبها لكل شك، وانتصار الإنسان ماهو إلا ذروة في الحقيقة المطلقة¹⁸.

ثالثا-البصيرة الخلقية

يعرف "رويس" البصيرة في كتابه "مصادر البصيرة الدينية" THE SOURCES OF "RELIGIOUS INSIGHT" على أنها صورة من الأهمية التي نستطيع عن طريقها تمييزها عن المعرفة فقد يعرف التاجر الطريقة التي يمارس بها عمله، ولكن لا يكون تاجرا ناجحا إلا إذا كانت لديه بصيرة بطبيعة العمل الذي يؤديه وبقواعده وبالطرق التي يستطيع تحقيق النجاح بها، فقد يعرف الإنسان أساء أصدقائه ووجوههم، ولكن تكون لديه بصيرة بصفات المقربين منهم. وتعد البصيرة وفق هذه الأمثلة اسما لنوع معين من المعرفة ولدرجة معينة منها، وبالتالي فالبصيرة معرفة توحد بين مجموعة من الوقائع في مجال معين، وتضم مجموعة من المعارف في وحدة معينة، وتحقق إدراك معنى معين، وقد تتحقق البصيرة لدى عدد كبير من الأميين وغير المتعلمين في أي موضوع من الموضوعات التي يدرسونها¹⁹

كانت هذه صفات البصيرة بصورة عامة. ولما كانت البصيرة الخلقية هي موضوعنا، وكان عالم الوقائع لا يمد الإنسان بمذهب أخلاقي، ويوجد انقصال بين هذا العالم وعالم الغايات الخلقية والمذاهب الأخلاقية، ووجدنا بأن الرغبات المتعارضة وإن ارتبطت بعالم الوقائع، فإنها تفقد خاصيتها المثالية. وبالتالي فإن التخلص من هذه الإشكالية لا يمكن بدارسة عالم الوقائع وإنما دراسة عالم الغايات الأخلاقية ككل فما هي الغاية الأخلاقية العليا التي يمكن أن تظهر لمن يدرك الغايات الأخلاقية ككل؟

يجيبنا رويس على هذا التساؤل بأن من يدرك غاية تصبح غايته ويرغب في تحقيقها تحققا فكريا كاملا، لذلك من يدرك الغايات المختلفة والمتضاربة تصبح كلها غايات في لحظة البصيرة أو الحدس فيدركها جميعا ويرغب في نجاحها كلها، ولما كانت كل غاية تعبر عن إرادة فردية فإن إرادته تصبح كل الإرادات المتضاربة وينقل الصراع من الخارج للداخل ويشعر الفرد بمرارته ولها السبب قد يشعر بالتشاؤم في اللحظة الأولى لنظرته الجديدة ثم

يتساءل في نفسه ألا توجد نهاية لهذه الصراعات؟²⁰ وبذلك يشعر الفرد بأن لديه غاية فإرادته ليس بدون هدف لأنه يرغب في تحقيق الانسجام بين الإرادات، وهذا الأخير الأوحده الذي يظهر في خياله قوة كل الخيارات الفردية والغايات المتصارعة، وبذلك يكون العالم المثالي هو العالم الذي يتحقق فيه الخير الأعلى، حيث يتوقف الصراع، وتنسجم كل الغايات الأخلاقية المتضاربة، ويؤكد "رويس" هنا على ضرورة تأسيس هذه البصيرة على القاعدة الأخلاقية "افعل كما لو كنت ترغب أن تحقق كل الغايات التي تتأثر بفعلك" بصيغة أخرى "افعل دائما في ضوء نظرة شاملة وتبصر كامل، لكل الغايات التي يؤثر فيها فعلك"، ويرى "رويس" أن هذه القاعدة الأخلاقية ليست عاطفية أو ذاتية بل قاعدة كلية طالما أن اختيارها يعتمد على التحقيق العام لكل الغايات المتضاربة في عالم الحياة وبذلك يظهر "مذهب أخلاقي" في قلب الشك ذاته وتنكشف "إرادة كلية" وسط الإرادات الفردية المتصارعة²¹.

ويرى رويس أن من الأمور الضرورية، بل وضرورة عقلية أن يدرك الإنسان أي نسق أخلاقي قد يعرض عليه، بأن يولد في ذاته، أو ينتج في عقله صورة طبق الأصل للإرادات التي وضعت هذا النسق الأخلاقي، ومن هنا يستطيع تقبل الغاية الجديدة، لذلك يرى "رويس" أن الشك الأخلاقي المطلق لا يكون خاليا تماما من السعي إلى غاية أخلاقية أو وجود هدف أخلاقي²².

إن اكتساب البصيرة يؤكد احترام كل فرد لإرادة الآخر فلا تكون البصيرة مجرد شعور بالشفقة أو العطف على الجار مثلا وإنما تعتمد على إدراك إرادته المتعارضة وتأمير السلوك طبقا للإرادتين وإنما لا تقول "حب لجارك ما تحب لنفسك" وإنما "أسلك كما لو كنت أنت وجارك كائنا واحدا"²³ ولا تقتصر قيمة المثل الأعلى في انه يقدم للبصيرة حدثها اللحظي فقط بل باعتبار أن كل غايات الإرادات المتصارعة في العالم قد اتسقت وتوافقت فيه مع هذه البصيرة ولذلك يقدم المثل للبصيرة قاعدة ثانية للسلوك تقول للفرد ". افعل بطريقة لكسب الآخرين الحد الخلفي"²⁴، ومن الواضح أن البصيرة تعارض المذاهب الدغمائية القائمة لغاية واحدة منفصلة، وتظهر من الوعي أن غاية واحدة ليست غاية حقيقية ويمثل الشك أولى مراحلها، فالشك هو الطريق الأمثل للوصول إلى المبدأ الخلفي ومعرفة طبيعة الإرادة الكلية، كذلك فالجار ما هو إلا مجموعة من الرغبات والأفكار لها وجود واقعي مثلما تكون "الأنا" المستقبلية واقعية وحقيقية.

والحقيقة أن فلسفة "رويس" الخلقية جاءت تطبيقا لمنهج الشك الديكارتي، وان كان الشك جوهر الحقيقة فهو جوهر الأخلاق، فعرض "رويس" لصراع المثل العليا بين المذاهب الخلقية الواقعية والمثالية، وعدم صلاحية المبدأ الخلفي الواحد الذي ترد إليه جميع الغايات الخلقية، وأن مثل هذا الصراع ينتهي إلى الشك والتشاؤم الأخلاقي، ومثلما استنبط ديكارت "الأنا يفكر في الشك"، استنبط "رويس" "الأنا الخلفي" أو الحدس الذي يظهر في الرغبة في التوحيد بين الغايات المتصارعة، ومن هنا ينقل "رويس" الشك من المجال الوجودي إلى المجال الأخلاقي، فإن كان الشك دليلا على وجود الذات، فإن الشك الأخلاقي دليل على وجود البصيرة الدينية²⁵.

رابعا- البصيرة الخلقية و التبصر الأخلاقي

أ- الحرية الأخلاقية:

يرى رويس أن النظام الأخلاقي يعتمد على الاعتراف بوجود النفوس الفردية، وقدرتهم على فعل الخير أو الشر، طبقا لوجهة نظرهم. ولإرادتهم الحرة، ويتحقق التقدم في النظام من خلال قيام الإرادة الفردية بواجباتها. فإذا كان العالم تعبيراً فردياً عن هدف المطلق، وهدف المطلق مركب، فإن وحدته هي وحدة إرادات عديدة تجدد كل منها تعبيرها في حياة فردية، وهنا يطرح رويس مجموعة من الأسئلة وجدنا أنفسنا مضطربين للإجابة عنها وهي: هل هذا العالم بأوصافه يحقق مطالب النظام الخلقى والوعى الأخلاقى؟، ألا يكون النشاط الأخلاقى ظاهرة عرضية في ظل وحدة العقل والطبيعة؟، ألا توجد حتمية أخلاقية؟، وهل يمكن التوفيق بين المعرفة الإلهية السابقة والإرادة الحرة للإنسان²⁶؟

إن الوجوب الأخلاقى كما عرفه رويس، "عبارة عن قاعدة إذا ما تم إتباعها في أي لحظة زمنية فإنها تعبر عن إرادة الفرد، وتجعله أكثر قرباً من الله".، وإذا ما اختار الفرد مخالفة هذه القاعدة، واختار سلوك العصيان، فإنه يكون بتمرده وبعبثائه معبراً عن الوجوب، ويشير النظام الأخلاقى أو القانون الخلقى بالتحديد إلى أفعال وإلى نتائج مقصودة لها، تتبع بعضها البعض في تعاقب زمني أو تدرك باعتبارها متعاقبة، ومن هنا يرى رويس "أن ميتافيزيقا السلوك الإنسانى تخضع للشروط العامة نفسها التي تحكم ميتافيزيقا أي عملية زمنية"²⁷. ولذلك تكون الذات واعية بتقابلها مع الواقع بوصفه الآخر الذي تحتاجه، للتعبير عن هدفها الداخلى، فيظهر الوجوب في صورة المبدأ، الذي يطالب الذات بالتوفيق بين إرادتها وإرادة العالم من خلال الطاعة للنظام الخارجى²⁸.

"إن حرية الذات تعتمد على القول، بأن فى الكل الفريد حياة المطلق تكون فيه كل ذات فريدة فى ذاتها وبالتالى فكل ذات تكون حرة فى احد جوانب طبيعتها، فإذا تمت رؤية هذه الحقائق فى ضوء التفرقة بين الزمنى والأبدى، فإن كل ذات أخلاقية تعبر عن نفسها فى سلسلة من الأفعال، يكون لكل فعل مكانه الفريد فى حياة فريدة ويكون فى حد ذاته فعلاً حراً، ولكن فى مقابل هذا ألا تسعى الذات لتحقيق وحدتها مع الآخر؟ وبالتالى لا يمكن أن تكون حريتها أخلاقية؟، إلا يعتمد الصراع بين "ما يجب" وبين "ملا يجب" على الجهل أى أن الذات المطيعة هى فقط جاهلة بخيرها الحقيقى، وبالتالى لا تكون الأفعال الخلقية إلا مجرد تعبير عن "معرفة" أو "جهل" ولا تعبر عن الحرية، وهنا يرى رويس أن للذات الإنسانية القدرة على إنتاج الأفعال الزمنية الأخلاقية، فالحرية الأخلاقية هى الحرية فى الانتباه أو عدم الانتباه لوجوب يكون حاضراً بالفعل فى الوعى المحدود، وتكمن هذه الحرية الأخلاقية للفرد فى تغيير عالمه إلى الاسوء أو إلى الأفضل، فبرغم من كونه إحدى تعبيرات المطلق، وبالرغم من كمال العالم وخيرية الكل، فيستطيع "الفاعل" أن يجعل عالمه أفضل أو أسوأ أى العالم الذى يراه فى علاقته بفعله وعلى جزء من الواقع وليس الواقع كله"²⁹.

كما يرى رويس انه ليس هناك علاقة حتمية أخلاقية، أى لا حتمية فى الأخلاق، فيستطيع الفاعل اختيار الشر أو تجنبه بأن يختار الخير، وبالتالى لا تعارض بين قدرة الفعل الأخلاقى على تغيير العالم، ومع وصف عالم المطلق بالكمال، وبأنه العالم الوحيد الممكن وجوده، وإن تطابق الفرد مع المطلق لا يكون بدون اختلاف وهذا مانجده عندما تتحول أفعال التكفير من أفعاله الشريرة إلى خير، وتتصالح إرادته، كما لا يتعارض تأسيس الوعى

الأخلاقي على التضاد بين "ماهو كائن" و"بين" ما يجب أن يكون"، لأن ما ينبغي أن يكون واقعا في النظام الأبدي، إن عالم المثالية ذو نظام أخلاقي يكون لكل فاعل مكانه وواجبه وحرته وقيمه الفردية ويتحقق له ذلك بسبب وحدته بالوجود وباللّه، وتتصف أفعاله بالحرية، لأن إرادة اللّه تعبير عن نفسها من خلاله باعتبارها أساس حرته، فالعالم كما فسره رويس "يتحقق من خلال الأفعال الحرة للإنسان سواء كانت خيرة أو شريرة أو تكفير"³⁰. وهنا نلمس الامتداد الكبير للفلسفة المسيحية في تفسيرها للأخلاق عند رويس.

كما يرى رويس أن عالم المطلق الذي يشمل كل شيء، لا يمكن أن يحدده أي شيء خارجه، ويكون حرا بهذا المعنى، ومع ذلك فكل الأحداث تحدث في نظام مطرد، فليس هناك شيء من عناصر المصادفة، أو حدوث شيء عرضا في الطبيعة، كما تستمر في الزمان، وبهذا يكون "رويس" فيلسوفا حتميا، فالعالم كما يوجد هو تعبير عن الإرادة الأزلية للمطلق. فرويس من أنصار "الجبر الذاتي" بالنسبة لموضوع الحرية البشرية أفعالنا، ونكون بالنسبة لها أحرارا ومستقلين أخلاقيا، إن لكل منا فرديته الفردية الخاصة، وله قيمته الخاصة بالنسبة للّه، ولا يمكن لأحد منا أن يحل محل الآخر، ونحن عندما نكون مدركين لهذا التفرد كما ندرك قيمنا الخاصة ونكون ملهمين بسبب ذلك وبالتالي فنحن أحرار، وعندما لا نفعل ذلك تقع في العبودية، ولقد اعتقد سبينوزا "" Baruch Spinoza " أن الناس يكونون مستعبدين وغير أحرار، طالما أنهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مجرد حلقات في سلسلة الأحداث المؤقتة، لكن طالما أنهم يستطيعون تجاوز الزمان، وينظرون لأنفسهم بمنظر أزلي، وينشغلون بالحب العقلي للّه فإنهم هنا يكونون أحرارا، إلا أنه يشهد كثيرا على القيمة الفردية للأفراد"³¹. ويجعل اللّه يشارك في كل حياتنا الواعية، ويدركها مباشرة بطريقة أكثر تعاطفا، وهو ما وضعه رويس " من خلال معالجته لمشكلة الشر.

ب-وجود الشر

تعتبر إشكالية وجود الشر من المشكلات الأخلاقية التي تواجه المذاهب المثالية، حيث يرى "رويس" أن الشر لا يوجد في العالم كوسيلة للخير، لأن معنى ذلك أن الخير والشر كيانان منفصلان، ويصبح الحصول على الخير مسبوفا بخبرة شريرة، ولا يتم ذلك إلا بوجود قوة محدودة. تحقق الخير من خلال توسط الشر، إن اللّه مطلق ولا وجود لأشياء مستقلة عنه، لذلك لا يعتبر الشر وسيلة للخير، بل ارتباط كل بجزء، فيستمد الخير وجوده من اللحظة التي يتم فيها اكتشاف الشر والسيطرة عليه. إن الشر عبارة عن واقعة تدفع جزئياتها إلى البحث عن الآخر، الذي يمكن من خلاله تفسيرها، أما بالنسبة لوجود الشر فيرى "رويس" أن الوعي بالشر يحدث بسبب طبيعة الإرادة، والمثل الأعلى، فنتحتاج الإرادة لعالم المستقبل الذي نعتبره عالم الوجود الذي نتحقق فيه، ولا تكون مشبعة تماما بالحاضر، لذا فهي تحي بشعورها بعدم الرضى، بسبب سعيها للمثل الأعلى دائما، لذا يرى رويس أن المثل العليا تساهم في الوعي بالشرور الزمنية³². وعن علاقة الشر بالعدالة الإلهية يرى رويس أن الإنسان غالبا ما يعاني من شرور لا ترجع إلى رذائله، أو لإرادته الحرة أو لمعصيته، ويعتقد الإنسان عندها أن هذه الشرور تتعارض مع العدالة الإلهية وي طرح الإنسان سؤاله التالي: "إذا كان العالم من صنع مديح حكيم يعرف قيمة

الخير، فكيف يسمح بوجود الشر؟"³³، وهنا يجيب "رويس" بنظرة غائبة للعلم حيث يؤكد أن الموت والحروب مثلا عبارة عن شرور طبيعية وليست من فعل الله أو الشيطان، وأن الآلام والأحزان ظواهر طبيعية تحدث بسبب الجهل ومحدودية الإنسان، لذا يعتقد رويس أن فهم الطبيعة من أفضل طرق تحقيق الخير كما أن وجود الشر في نظره يعتبر ضروري لحرية الأفراد، لأنها تتضمن منطقيا سراح الله بوجود الأفعال الشريرة فبدون الحرية لا وجود لخير أعلى، وبسببها يستطيع أن يخطأ الإنسان³⁴.

وفي عرضه للإشكالية الأخلاقية، وجه "رويس" النقد للأخلاق الواقعية، التي تستنبط المثل من الواقع أو من المجتمع، فالمجتمعات عديدة ومتعددة، الأمر الذي يؤدي إلى تضارب المثل العليا، كما أنه وجه نقدا للمذاهب المثالية التي تستنبط المثل من الذات أو الطبيعة الإنسانية، وتطلب من الواقع الخضوع لها، الأمر الذي يؤدي إلى اختلاف المثل وتضاربها، لأنها تنبع من إرادات متعددة، وهي محاولة من رويس لأن يمهّد لظهور الشك الخلقى ثم الخروج في النهاية بالحدس الأخلاقي، فقد يستمد المثل من الواقع، لكنه يستطيع تجاوزه ويسعى إلى تطويره وتغييره، حيث جاءت معالجة رويس للأخلاق المثالية تسير في تيار المثالية الألمانية خاصة الفلاسفة بعد "كانط" kant، حيث تشبه آراء "هيجل" Friedrich Hegel بصورة عامة و"فشتة" fsstth و"شونهور" بصورة خاصة. ولئن كان مذهب رويس الميتافيزيقي في الشر أو نظريته المثالية بصورة عامة تشبه آراء هؤلاء الفلاسفة، إلا أنه وصل إليه بمنهج مختلف، فلم يتخذ "رويس" التجريد والمذهب التأملي منهجا، بل اتجه إلى الخبرة الإنسانية الواقعية أو الشعورية داخل الوعي، ليبين ضرورة وجود الشر داخل الخبرة الحرة، وانطلق من الوعي الفردي إلى الوعي المطلق، ورويس لم يقدم نقده للمذاهب الأخلاقية السابقة لكي يقضي عليها، بل خرج بمذهب يتألف منها ويشملها جميعا، فالبصيرة الخلقية تحقق الانسجام بين المذاهب الأخلاقية المختلفة، وتحويها جميعا، وبذلك يتطابق المنهج مع المذهب³⁵.

ويصر "رويس" على الوجود الأصيل للشر، فقد جعلت دراسة شونهور للشر مستحيلا عليه أن ينكر وجود الشر ويصفه بأنه وهم أو مجرد شيء ظاهري، إلا أن رويس يفسر وجود الشر بأن الله لم يرد العالم بشروه بطريق عابثة، بل أراد الله الشر لكي ينتج الخير الأعظم الذي لولاه لما تحقق. ويقدم "رويس" أمثلة عديدة على فكرته هذه وتشبيهات منها "افرض مثلا انك وأنا سمعنا بعض الأنغام الحادة عند عزف سيمفونية جعلتنا لا نستطيع أن نفهم بقية القطعة الموسيقية، فإن هذه الأنغام الحادة سوف تبدو لنا أنها شر تام. أما بالنسبة لله أو المطلق، من ناحية أخرى، يخبر الكون ككل، ماضية، وحاضره، ومستقبلية بطريقة أزلية، ويجد متعة منذ الأزل، ومن ثم تبريرا لكل الشرور العارضة، من حيث أنها أجزاء ضرورية من الخير الأزلي الدائم³⁶.

كما يقدم "رويس" أمثلة أخلاقية أيضا، "فيوسف" في القصة التي يروها الكتاب المقدس، خانه إخوته لكنها ليست خيانة على الإطلاق لأنها أظهرت نبوته وملكه. ولا تزال خيانة "يهودا" ليسوع" أكثر إذهالا ودهشة، ولولا هذا العمل الشرير، لما حدث موت "يسوع" على الصليب. لكن "يسوع" مات، وأيا كانت التفسيرات التاريخية والعلمية الصحيحة، فإن إتباع "يسوع" أصبحوا الآن يؤمنون بقوة قيامته، وبلغت الكنيسة

الأولى نتيجة للإيمان المشرك "بالإله" الذي رفع تجربة دينية أكثر ثراء مما كان يمكن أن تصل إليه لولا حياة "بوذا". ومن هنا يقرر "رويس" أن كل من يبتهج بشدائده وكرهه الخاصة، ويتغلب عليها ويحولها إلى الخير في حياته الشخصية الحاضرة، عندما لا يستطيع أن يفعل ذلك كما في الغالب، وتواجهه في أي حدث المعرفة التي يرغب اللوغوس في أن تكون الأفضل، وتكون تلك الشرور بالنسبة له الآن جزء من بهجة الله المباركة والمظفرة فحقيقة أن الله يسمح للمخطئ أن يخطئ ويحول الله هذا الشر إلى خير دائم، لكن المخطئ يلام ويدان على نحو أزلي بسبب الشر الذي ارتكبه والذي لا يصبح خيرا إلا عن طريق تضحيات بطولية من الآخرين³⁷.

ويرى رويس أنه لقد نتجت عن فلسفة كانط النقدية أن أصبحت فكرة "الله" و"النفس" و"حرية الإنسان" من مصادرات العقل العملي فقط، وخارج حدود العقل النظري، الأمر الذي سبب إشكالية حقيقية للديانة المسيحية التي تأسست على هذه الأفكار، وجاءت الفلسفات بعد كانط تعالج هذه الإشكاليات الناتجة عن فلسفة "كانط"، فرد "فشته" كل شيء إلى الأنا ووحده "شلينغ" بين "الأنا" و"اللاأنا"، وجعل "هيجل" المطلق حاويا لكل شيء، فوجدت المسيحية في هذه المثالية القائمة على الوعي بالذات دعما لأفكارها وازدادت النزعات الشككية والتشاؤمية اللاأدرية، طالما أن الشيء في ذاته لا يمكن معرفته، وظهرت فلسفة "سبنسر" وصار المطلق لا معروفا، وأصبح البقاء للأصلح قانونا للحياة، وجاء "رويس" بمشروعه التوفيقي حيث اتجه إلى تأويل المسيحية تأويلا فلسفيا حيث نجح رويس إلى حد كبير في تأويل المسيحية وصبغها بصبغة فلسفية جعلتها تتحدث بلغة العقل والقلب معا³⁸.

ج-وحدة الذات وخلود النفس

يعتقد رويس أن الكون بأسره بما في ذلك عالم الطبيعة هو في حقيقته "كائن حي واحد فهو عقل أو روح واحد عظيم" حيث يعتقد أن هذا المذهب ليس غامضا ولا خياليا، لأنه نتيجة تفكير دقيق يتفق مع التجربة الفعلية وفروض العلم البشري، وتلك الروح الواحدة التي يشير إليها "رويس" في أعماله هي الله أو اللوغوس «logos» أو الذي يحل المشكلة "problem solver" أو مفسر العالم أو المطلق، وأن الذات الإنسانية تقوم على ربط الإحساسات الحاضرة والماضية معا، ونعطيها وحدة أو كما يطلق عليها كانط "صورة الإدراك أو مقولات الفهم". لكن هل هذه الذات هي نوع من الجوهر أم أنها نفس توجد وراء الانطباعات التي تزول وتنقضي؟، كلا لأن رويس يعتقد أن "هيوم" قد بين الآن الأمر ليس هكذا، بل أن اللحظات المتتابعة لتجربة واعية عند شخص ما تكون بطريقة ما ذاتها من حيث أنها كذلك³⁹.

وتنكر بعض صور المذهب المثالي المطلق، مثل مثالية "بوزنكيت" Bernard Bosanquet، الخلود الفردي لان الفرد إذا كان متناها فهو محدود، ولا نحقق السعادة إلا بالانغماس الكامل في المطلق، وفقدان كل هوية شخصية، أما "رويس" فهو على العكس من ذلك يقوم بمجهود كبير من اجل المحافظة على المجهود الشخصي للأفراد وجعلهم مشاركين أصليين في الحياة الإلهية، وفي الرؤية الأزلية التي يتحول فيها كل شر إلى خير⁴⁰. ويعتقد رويس أن كل ذات فردية لها ديمومتها في الزمان، مع أنها لا متناهية في ديمومتها. وكل فرد عبارة عن

طور فريد من أطوار الحياة الإلهية، وربما كان أفضل تشبيه لما يذهب إليه "رويس" هو التشبيه بالأعداد على النحو التالي:

..... إلى مالا نهاية	4	3	2	1
..... إلى مالا نهاية	12	8	4	2
..... إلى مالا نهاية	625	125	25	5
..... إلى مالا نهاية	2401	343	49	8

فالسلسلة العددية الأولى المكتوبة فوق الخط وهي سلسلة الأعداد الصحيحة كلها لامتناهية، ونصور بها هنا المطلق، والسلسلة المكتوبة أسفل الخط هي كذلك لا متناهية، ومع ذلك فهي مشتملة على السلسلة الأولى، وثانيا تميز بطابع فريد يجعلها وحدة قائمة بذاتها. وكل واحدة من هذه السلسلة تمثل فردا من أفراد البشر، وتناظر السلسلة الثالثة نفسا بشرية أخرى وهكذا، وتكون كل سلسلة من تلك السلاسل التي تناظر نفسا بشرية فريدة، لأنها لا تحتوي على عدد يظهر في أي سلسلة أخرى أسفل الخط، ومع ذلك يكون كل عدد في كل سلسلة متضمنا بداخل سلسلة كل الأعداد بأسرها التي تظهر فوق الخط. وليس التشبيه الرياضي حجة بالتأكيد، لأنه اقل كثيرا من الدليل، لكنه يوضح على الأقل كيف يمكن تصور المطلق بوصفه لا متناهيا، بحيث يضم بداخله كل النفوس البشرية، والتي بدورها تكون كل نفس منها فريدة ولا متناهية في دوامها المستقبلي⁴¹، كما أن مناقشته لإشكالية الحرية الأخلاقية للإنسان لم تكن كما ناقشها كانط من حيث العلاقة بين الذات الأخلاقية وخضوعها لمبدأ الواجب والذي تتصف قواعده بالمعقولة والتجريد والشمول والإنسانية⁴² فإذا كانت تجارب جميع الأفراد موجودة في عقل مطلق والذي يشمل بدوره كل شيء، فنحن خالدون بداخل المطلق من حيث أننا أفراد فريدون، وسنشارك في الحياة المستقبلية بصورة أكثر كمالا في رؤية المطلق، والتي تشمل كل شيء، من دون أن نفقد هويتنا الشخصية. إن العودة إلى المذاهب التقليدية الفلسفية، بعد إن ولى عصر المذهبية ما هو إلا محاولة من "رويس" يؤكد فيها قدرة الفلسفة المثالية على مواجهة إشكاليات ومتطلبات العصر. وربما يكون "رويس" قد حاول تقديم دين جديد، يحقق مطالب المواطن الأمريكي، ويشبع شعوره الديني، خاصة بعد الحرب الأهلية الأمريكية، وبالتالي يحافظ على الوحدة ويحقق التصالح بين أفراد المجتمع الأمريكي، وبالتالي يصبح "رويس" الفيلسوف المعبر عن الروح الدينية والأخلاقية للمجتمع الأمريكي، أو أن رويس "أراد بهذا التوفيق وإحياء البرهنة على وجود الله، إن يقدم لنا الروح المسيحية في صورة فلسفية، بعد إن عانت من فقدان الثقة في عصره، بسبب الحروب وتطور العلم، وظهور النظرية "الداروينية"، وانتشار الروح العلمية، كما إن اختفاء الدين في تلك الفترة لا يؤثر على

نظم المجتمع الاقتصادية والسياسية وهذا هو التفسير الأقرب للمنطق. فانتشار عدم الثقة بين الأديان يؤدي ظهور تيارات فكرية تطالب بالعودة إليها مثل تيار الهيغلية الجديدة الذي عادا ممثلا في فلسفة رويس " إلا أن الدارس لكتاب "مشكلة المسيحية" لجوزيا رويس " يظهر له جليا أن هذا التوفيق ما هو إلا محاولة لتأويل المسيحية تأويلا يجعلها دينا مقنعا للإنسان القرن العشرين⁴³، والحقيقة كما يرى المفكر حسن حنفي أن زمن البراهين قد انتهى سواء كان دينا إنسانيا أم إلهيا.

الخاتمة

ومن خلال هذا التحليل نجد أن رويس قد عالج إشكالية الأخلاق بمنظور ديني خاصة في مشكلة العدالة الإلهية وتفسير وجود الشر، ورغم استخدامه لمصطلح "ليبنز" الفلسفي عن العدالة الإلهية إلا أنه قصد به المسألة الدينية، كما أن مناقشته لإشكالية الحرية الأخلاقية للإنسان لم تكن كما ناقشها كانط، بل تناولها بمنظور أقرب للمنظور الديني أي من حيث علاقة الله بالإنسان. وإذا كان رويس قد عالج الاخلاق المثالية باعتباره هجليا جديدا من خلال فلسفته التوفيقية، فهذا لا يعني رد الدين إلى الفلسفة أو رد الفلسفة إلى الدين أو استبدال أحدهما بالآخر، وإنما بيان كيف يمكن القيام بالتوفيق بينهما، والتأكيد على أهمية كلاهما للتعبير عن جوانب الحياة النفسية والروحية، وبالتالي ظهرت عدة تساؤلات في هذا الصدد فهل جاء التوفيق لصالح الفلسفة أم لصالح الدين؟ وهل يستوعب الدين الفلسفة، وهل تستطيع الفلسفة أن تتطابق مفهومها مع مفهوم المطلق الذي قالت به المثالية مع مفهوم الله، وهل يمكن أن تقدم الفلسفة المثالية حلا لعلاقة الإنسان بالله ويحقق للإنسان حريته واستقلالته، وهذا ما يحاول رويس "الإجابة عليه ويحاول أن يقدم لنا توفيقاً أكثر ما نستطيع القول عليه انه مثالي برغماتي ومنطقي في نفس الوقت، حيث أظهر لنا هذا التوفيق في مجالات عديدة نذكر منها المطلق الطبيعية والإنسان والأخلاق وهو ما سنقوم بتحليله موضحين مواضع أو مجالات التوفيق في فلسفة رويس هذا من جهة، وأين يكمن كل من التوفيق بين الفلسفة والدين، وكذا البرغماتية والمثالية من جهة أخرى، كما نشير أنه لم يكن هذا بل حاول إدخال تعديلات على الفلسفة المثالية الألمانية فقد جاءت فلسفته جمعا وتأليفا واستمرارا لأفكار وروح المثاليين الألمان حيث يظهر لنا رويس العالم باعتباره نظاما أخلاقيا كما جاء عند فيخته، ولا يعرف الأنا نفسه إلا من خلال الآخرين مثلما كان عند شلينغ، وجاء مطلقه جامعا بين معقولية هيغل و إرادة شوبنهاور، وفي الوجود ناقش علاقة الفكر والواقع والذات والموضوع كما فعل المثاليون، وفي المعرفة جاءت الذات أساسا لها وطور المنهج الجدلي فأصبح تأويلا من خلال فلسفة التأويل عنده، ووضع جدلا للمقولات أشبه بالمقولات الكانطية وإن كانت أكثر اكتمالا منها، وفي الأخلاق جاءت البصير الدينية أقرب للواجب الكانطي، وفي تفسير وجود الشر اقترب من هيغل وإن كان قد سلك طريقا مختلفا في البرهان، واقترب رويس من برغسون في أن الانفعال مصدر الأخلاق وبالضبط في الإعجاب بأخلاق الولاة، مؤكدا على أن الفرد له علاقة بالمطلق عن طريق مشاركة التجربة الفردية مع التجربة المطلقة وفهم الإنسان لهذه المشاركة، والمنطق هو وسيلة هذا الفهم، ولما كانت علاقة الإنسان بالواقع هي علاقة عقل بعقل فالمنطق هو أفضل آلة لفهم صلة العقول ببعضها البعض وتفسيرها.

التهميش

¹¹ محمد بومانة وآخرون: مبادئ الفلسفة العامة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2015، ص 213، 214.

² بيا دني: أصول الأخلاق، ترجمة ابراهيم ريزي، الكليات، القاهرة، 2012، ص 10.

³ يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط - دار الكاتب المصري - القاهرة 1946 ص 7

⁴ أحمد الأنصاري فلسفة الدين عند جوزابا رويس مركز الكتاب للنشر مصر 2004. ص 182.

* جوزابا رويس: فيلسوف أمريكي هيغلي النزعة مثالي المذهب وهو الميتافيزيقي الأمريكي الوحيد، ولد في " crass valleg" بولاية كاليفورنيا في الولايات المتحدة سنة 1855 وهو ابن لوالدين انجليزيين عبرا القارة الأمريكية اثناء التهاقت على الذهب سنة 1849، ودخل جامعة كاليفورنيا في سنة 1871، وحصل على البكالوريوس سنة 1875. كتب بحثا عن اللاهوت في مسرحية "برونيوس مقيدا"، نال به منحة من المال مكنته من تقضية عامين في ألمانيا، حيث راح يقرأ الفلاسفة الألمان وخصوصا شلينغ وشبنهور، والتحق بجامعة "جيت خن" حيث درس على يد الفيلسوف "لوتسه"، ثم حصل على الدكتوراه من جامعة جونز هوبنكر، في (بلتيمور)، وكان حينها يستمع لوليم جيمس وبعض محاضراته، عين مدرسا في جامعة كاليفورنيا لبضعة أعوام، ثم أستاذ مساعد وفي 1892 صار أستاذا في نفس الجامعة (هارفاد) وشغل كرسي الفورد للفلسفة في جامعة هارفارد سنة 1914. توفي سنة 1915. من مؤلفاته محاضرات في المثالية الحديثة، الجانب الديني للفلسفة، روح الفلسفة الحديثة، مفهوم الله، دراسات في الخير والشعر، العالم والفرد، ج1، ج2، فلسفة الولاء، ولیم جیمس وفلسفة الحياة، مصادر البصيرة الدينية، مشكلة المسيحية ج1، ج2، مفهوم الله، ودراسات أخرى، أنظر عبد الرحمان بدوي الموسوعة الفلسفية، ص 544.

⁵ <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=222465> . 28 01 2017

⁶ أحمد الأنصاري فلسفة الدين عند جوزابا رويس (مرجع سابق) ص 182

⁷ المرجع نفسه، ص 183.

⁸ جوزابا رويس روح الفلسفة الحديثة، ت أحمد الانصاري، المجلس الاعلى للثقافة، الجزيرة، القاهرة، ط1، 2003، ص 174.

⁹ المصدر نفسه، ص 135.

¹⁰ المصدر السابق، ص 175.

¹¹ المصدر نفسه، ص 176.

¹² جيرارد دلبو دال: الفلسفة الأمريكية، ت جور كاتورة، إلهام الشعراي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، د، ط، ص 257.

¹³ جوزابا رويس. الجانب الديني للفلسفة، ت احمد الانصاري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2009، ص 97.

¹⁴ المصدر نفسه، ص 98.

¹⁵ أحمد الأنصاري، فلسفة الدين عند جوزابا رويس، مرجع سابق ص 177.

- ¹⁶ جوزايا رويس: الجانب الديني للفلسفة، مصدر سابق ص 111.
- ¹⁷ المصدر نفسه، ص 112.
- ¹⁸ أحمد الانصاري فلسفة الدين عند جوزايا رويس، مرجع سابق، ص 184.
- ¹⁹ جوزايا رويس: مصادر البصيرة الدينية، ت، احمد الأنصاري، المشروع القومي للترجمة 2007 القاهرة ص 18
- ²⁰ احمد الانصاري: فلسفة الدين عند جوزايا رويس مرجع سابق ص 178
- ²¹ المرجع نفسه، ص 179.
- ²² جوزايا رويس: الجانب الديني للفلسفة، مصدر سابق ص 119.
- ²³ احمد الانصاري: فلسفة الدين عند جوزايا رويس مرجع سابق ص 180.
- ²⁴ المرجع نفسه، ص 179.
- ²⁵ المرجع نفسه، ص 184.
- ²⁶ المرجع السابق، ص 185.
- ²⁷ جوزايا رويس: العالم والفردج ت احمد الانصاري بالمركز القومي للترجمة القاهرة 2008 ص 230.
- ²⁸ احمد الانصاري: فلسفة الدين عند جوزايا رويس مرجع سابق، ص 186.
- ²⁹ المرجع السابق، ص 189.
- ³⁰ المرجع نفسه، ص 190.
- ³¹ وليم كلي رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة، ت محمود سيد احمد، التنوير للطباعة والنشر بيروت لبنان، ط 1 2010 ، ص 474 .
- ³² احمد الانصاري: فلسفة الدين عند جوزايا رويس مرجع سابق ص 193
- ³³ المرجع نفسه، نفس الصفحة.
- ³⁴ (1885) Gloucester ج Jasiah royce:the deligous aspect if philosophy، mass peter smith ، 1941965.p
- ³⁵ المرجع السابق، ص 197.
- ³⁶ وليم كلي رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص: 474.
- ³⁷ المرجع نفسه، ص 475.
- ³⁸ احمد الانصاري: فلسفة الدين عند جوزايا رويس، مرجع سابق، ص 206.
- ³⁹ وليم كلي رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة مرجع سابق، ص 465.
- ⁴⁰ المرجع نفسه، ص 476.
- ⁴¹ المرجع السابق، ص 476.
- ⁴² إمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الاخلاق، ت، عبد الغفار مكاوي، الدار القومية للنشر، القاهرة، 1965، ص 62.
- ⁴³ احمد الأنصاري: فلسفة الدين عند جوزايا رويس، مرجع سابق ص 348.

قائمة المصادر والمراجع

1. المصادر

1. جوزابا رويس: مصادر البصيرة الدينية، ت، احمد الأنصاري، المشروع القومي للترجمة 2007 القاهرة
2. -جوزايا رويس روح الفلسفة الحديثة، ت أحمد الانصاري، المجلس الاعلى للثقافة، الجزيرة، القاهرة، ط1، 2003،
3. -جوزايا رويس. الجانب الدينى للفلسفة، ت احمد الانصاري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2009،
4. -جوزايا رويس: العالم والفرج 2 ت احمد الانصاري بالمركز القومي للترجمة القاهرة 2008

المصادر باللغة الاجنبية

- 2) Jasiah royce:the deligous aspect if philosophy(ع1885) Gloucester .mass peter smith 1965.

2. المراجع

1. -جيرارد ديلبو دال: الفلسفة الأمريكية، ت جور كاتورة، إلهام الشعراي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، د، ت، ط.
2. -وليم كلي رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة، ت محمود سيد احمد، التنوير للطباعة والنشر بيروت لبنان، ط1 2010 .
3. -أحمد الأنصاري فلسفة الدين عند جوزيا رويس مركز الكتاب للنشر مصر 2004..
4. -إمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الاخلاق، ت، عبد الغفار مكاي، دار القومية للنشر، القاهرة، 1965
5. محمد بومائة وآخرون: مبادئ الفلسفة العامة، مؤسسة كنوزالحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2015، ص 213، 214.
6. ياء دني: أصول الأخلاق، ترجمة ابراهيم ريزي، الكلمات، القاهرة، 2012.
7. حسن حنفي:دراسات اسلامية ،المكتبة الانجلو مصرية ،القاهرة 1981،
8. يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط - دار الكاتب المصري - القاهرة 1946.
9. عبد الرحمن بدوي:"الموسوعة الفلسفية"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984.